اللـــغة العـــامة واللـــغة الخـــاصة:

خصائص اللغة العلمية

د.علي القاسمي (*)

العام والخاص:

اللغة، كما عرّفها ابن جني، " أصوات يعبّر بهـــا كلُّ قوم عن أغراضهم" (ابن جـــني: 1:33). ويكمـــن الغرض الرئيس لاستعمال اللغة في التواصل اليومي، وتبادل المعلومات، والتعبير عن الحاجات والرغبات. ونظـــراً لأن اللغة تُستعمل داخل المجتمع في بيئات متعددة ومن قبـــل جماعات ذات مستويات ثقافية متباينة، فإنها تتأثّر بتلـــك البيئات وهذه المستويات. وينشأ عن ذلك التأثُّر أنـــواع لغوية متعددة تتمثل في اللهجات الإقليميـــة (عراقيـــة، مصرية، مغربية، إلخ.) والمستويات الاجتماعية (لغة الطبقة الراقية، لغة الطبقة المتوسطة، لغة الطبقة الفقيرة، إلخ.)

وإضافة إلى استعمال اللغة لتحقيق الغرض العام في التواصل اليوميّ، فإن جماعات معيّنة داخـــل المجتمـــع، تجمعها اهتمامات علميّة أو مهنيّة مشتركة، تستعمل اللغة لأغراض خاصة بها. فالأطباء، مثلا، يستخدومون اللغـــة لتبادل المعلومات الطبية فيما بينهم، فتتأثر لغتهم بطبيعـــة مهنتهم وتصبح لها خصوصيات تميزها عن اللغة العامة في المستويات الصوتية والصـــرفية والنحويـــة (التركيبيـــة) والدلالية. ويكتسب أهل المهنة لغتهم الخاصة أثناء تدرّبهم على المهنة ومزاولتها، ليتمكنوا من التواصل بسهولة مـــع بقية أبناء المهنة. وقد عرف اللسانيون العرب ذلك منـــذ أمد طويل. فعندما تحدّث المبارك بن الأثير الجـــزري(ت 606 هـــ /1210م) (الأخ الأكبر للمؤرِّخ المشهور ابن الأثير) في كتابه "النهاية في غريب الحديث والأثر" عـــن اللفظ، قسّمه إلى عام وخاص.

فاللغة التي تكثـــر فيهـــا الألفـــاظ الخاصـــة أو المصطلحات العلميّة والمهنيّة يمكن تسميتها باللغة الخاصة. ويسمّيها بعض اللغويين بلغة الأغراض الخاصة لتمييزهـــا عن اللغة العامة التي تستعمل لأغـــراض الحيـــاة اليوميـــة بمختلف جوانبها (بيشت:13). ويسمّيها بعضهم الآخـــر باللغة القطاعية لأنها تُستخدم في قطاع معين من قطاعات الحياة المتعددة (الفاسي الفهري، 2: 228). وتكثر في هذه اللغة الخاصة المصطلحات المُتعلّقة بالحقل العلمـــيّ الـــذي تدور حوله. وبعبارة أخرى، فإن لكـــلّ حقـــل علمـــيّ مصطلحاته الخاصة به (انظر مثلا: البوشيخي، الشاهد).

وكانت مدرسة براغ اللغويّة تفضّل الحديث عـــن الأساليب اللغوية بدلا من الأغراض، فتذكر في نطاق اللغة

(*) خبير في المعجمية والمصطلحية

العامة، الأسلوب التواصليّ الذي يُستعمل في التواصل في الحياة اليومية بعمومها، والأسلوب الجماليّ الذي يستعمل في النثر الفني والشعر وبقية الأجناس الأدبية، والأسلوب العلميّ الذي تُدوَّن به نتائج البحوث العلميّة، والأسلوب المهنيّ الذي تُصاغ به الإرشادات والتعليمات المهنيّة.

واللغة الخاصة جزء من اللغة العامة، وتعتمد في وجودها عليها، وتستقي معظم عناصرها منها، ولكنّها أقلّ منها كَمّاً وأكثر منها دقة. فاللغة الخاصة نوع مقنَّن ومرمَّز من أنواع اللغة العامة، ويُستعمل لأغراض خاصة في سياقات حقيقيّة، وليست خياليّة كما هو الشأن أحياناً في اللغة العامة. فاللغة الخاصة يستعملها المتخصصون في حقل معيَّن من حقول المعرفة لتبادل المعلومات العلميّة أو التقنيّة أو المهنيّة. ولهذه اللغة الخاصة، بدورها، مستويات متعدِّدة من حيث التجريد تعتمد على الحقل العلميّ والموضوع وخبرة المتخاطبين ومستواهم التخصصيّ (بيشت:15).

وهنالك تفاعل مستمرّ بين اللغة العامة واللغة الخاصة. إذ تلجأ اللغة الخاصة لاستعارة بعض مصطلحاتها من اللغة العامة (البوشيخي، عز الدين: 28). وفي الوقت نفسه قد تثري اللغة العامة نفسها باقتراض بعض المصطلحات من اللغة الخاصة وتحويلها إلى كلمات عامة، نتيجة شيوع استعمال تلك المصطلحات التي تصبح ألفاظاً حضاريّة ثم تضحى ألفاظاً عامة، مثل مصطلح "حاسوب" الذي كان استعماله مقتصراً على نخبة من الباحثين العلميّين المتخصِّصين ثم أصبح اليوم لفظاً حضارياً يستعمل على نطاق واسع في الحياة اليومية الحضريّة.

وتمتاز اللغة العامة، خاصة الأدبيّة منها، بكثرة الاستعمالات المجازية كالتشبيه والاستعارة والكناية، والأساليب البيانيّة الأخرى كالتعريض والتلويح والرمز والإيماء، وورود المحسنات البديعية كالطباق والمقابلة والجناس وغيرها، واستخدام التعابير المسكوكة كالتعابير الاصطلاحيّة (مثل " يعرف من أين تؤكل الكتف" و" قائم على قدم وساق") والتعابير السياقيّة (مثل " صديق حميم" و " عدو لدود"). أما اللغة الخاصة فتجنح إلى استعمال لغة مباشرة واضحة بسيطة تخلو من الاستعمالات المجازيّة والمحسنات البيانيّة والبديعيّة والتعابير المسكوكة (القاسمي: 87-111).

ونظراً لأن اللغة العامة تُعبِّر عن ذات الإنسان وما يراه من الكون حوله، ونظراً لأن الإنسان والكون المنظور لا يتغيران بسرعة، فإن وحدات اللغة العامة التي تُعبِّر عنهما لا تخضع للتغيّر السريع وإنما تمتاز بنوع من الثبات النسبي، بالمقارنة مع وحدات اللغة الخاصة التي تُعبِّر عن مفاهيم وأدوات ومخترعات هي عرضة للتغيّر المستمرّ نتيجة لتطور المعرفة، خاصة في عصر يكون التطوُّر العلميّ والتقنيّ فيه متسارعاً ومتلاحقاً. ونتيجة لذلك فإن وحدات اللغة العامة أطول عمراً من وحدات اللغة الخاصة (الودغيري: 194).

خصائص اللغة الخاصة:

إذا ألقينا نظرة على نصَّين أحدهما أدبيّ والآخر علميّ سنلحظ فروقاً بينهما. ولنأخذ النصَّين التاليين، على سبيل المثال:

النص الأدبي

"بادرني بالسكر، وقال: أنا الخمر وأنتَ الساقي، فلتُصبح يا أنتَ أنا محبوبي: " يرهنُ خرقتَه للخمرِ ويبكي مجنوناً

بالعشق"،عراه غبارٌ قلبي، من فرطِ الأسفارِ إليكَ ومنك، فناولني الخمرَ ووسِّدني تحتَ الكرمةِ مجنوناً ولتبحث عن ياقوت فمي تحتَ الأفلاكِ السبعة، ولتُشعلْ بالقُبلات الظمأى في لحمِ الأرضِ حريقاً، مرآةً لي كنتَ، فصرتُ أنا المرآة، أعرِّيكَ أمامي وأرى عُريي، أبحثُ في سكري عنكَ وفي صحوي، ما دامت أقداحُ الساقي تتحدثُ دونَ لسان."

عبد الوهاب البياتي

من قصيدة" مقاطع من عذابات فريد الدين العطار"

النص العلمي

"ومهما اختلفت الحواسيب في أحجامها وأنواعها، فإنها تتّبع نفس الطريقة في العمل على النحو التالي:

إدخال ← معالجة ← إخراج

فالبيانات المراد معالجتها تدخل إلى الحاسوب عن طريق وحدات إدخال مختلفة، ويتم تخزينها بشكل مؤقت في ذاكرة الحاسوب لإجراء المعالجة اللازمة عليها، ومن ثم إخراج النتائج عن طريق وحدات الإخراج المختلفة."

الأزهري ومنيزل وأبو عطية

من كتاب "مدخل إلى تدريس المعلوماتية": 5

وإذا نظرنا إلى هذين النصّين يتّضح لنا أن النصَّ العلميَّ يمتاز بخصائص معيَّنة وكأنّه ينسج على منوال ما يسمِّيه بعضهم بـ " الكتابة المعيار". وأهم خصائص النصّ العلميّ ما يلي:

1- الموضوعية:

في حين أن اللغة العامّة تُعبِّر عن رغبات الفرد وتخيّلاته وانفعالاته، فإن اللغة الخاصة تُعبِّر عن مفاهيم الأشياء والذوات الخارجيّة. ومن هنا فإن اللغة العامّة أقرب إلى الذات، في حين أن اللغة الخاصّة أقرب إلى الموضوع. وينعكس ذلك على بنية اللغة. فمن الناحية الصرفيّة مثلا نلاحظ غياب الضمائر وخاصة ضمير المتكلّم والمخاطَب،في اللغة العلميّة. ولهذا فقد جرت العادة في المقالات العلميّة أن يتحاشى الكاتب عبارات مثل " عندما أكملتُ التجربة" و " بعد أن أجريتُ الإحصائية " ويستخدم بدلها " عند إكمال التجربة" و " بعد إجراء الإحصائية" ، كما يتجنَّب الباحث العلميّ كلمات مثل " أعتقدُ" و "أظنُّ" . أما على المستوى النحويّ، فإن التراكيب النحويّة مشتركة بين اللغتين العامّة والخاصّة، ما عدا ندرة صيغ معينة في اللغة الخاصة مثل صيغتي التعجب والاستفهام الاستنكاري.

ويسمي بعضهم خصيصة الموضوعية بـ " الاستقلالية"، لأن النصَّ العلميَّ مستقلّ تماماً عن ذات الكاتب وعن الإطار التاريخي الذي حُرر فيه.

2ـ الدقة:

لقد ولدت مفردات اللغة العامّة بصورة عفويّة في فترات تاريخيّة مختلفة، واستُعملت لخدمة الأغراض العامّة المتعددة للتواصل اليوميّ. وأدى مرورها في مراحل تاريخية متعدِّدة من التطور، إضافة إلى حاجة اللغة إلى التعبير عن معانٍ لا متناهية بأدوات لغوية متناهية أدى كلّ ذلك إلى إفراز ظاهرتَي الاشتراك اللفظيّ والترادف. ويحصل نتيجة لذلك بعض اللبس أو الغموض. أما المصطلحات العلميّة المستخدمة في اللغة الخاصّة، فإنها تخضع إلى نوع من التوليد المقصود القائم على أسس معياريّة، بحيث يعبِّر المصطلح الواحد عن المفهوم الواحد

في الحقل العلميّ الواحد، ولا يُعبَّر عن المفهوم الواحد بأكثر من مصطلح واحد في الحقل العلميّ الواحد. وهذا ما يُطلق عليه " أحادية الدلالة". وتقتضي الدقّة من الباحث العلميّ أن يضع تعاريف دقيقة للمصطلحات التي يستعملها في بحثه. أما اللغة الأدبية فلا تحتاج إلى ذلك، بل تبتعد عنه؛ لأن الشعر، مثلا، يسعى إلى كسر القوالب اللفظية النمطية، وابتكار استعمالات جديدة للألفاظ في سياقات غير مسبوقة، تساعد على إطلاق خيال المتلقي من عقاله وتحليقه في أجواء من النشوة واللذة.

وضماناً للدقة، قد يلجأ النصّ العلميّ إلى وضع المصطلحات التي تَرِد فيه بين مزدوجتين " ... " لتنبيه القارئ إليها والابتعاد بها عن نظيراتها في اللغة العامة. كما قد يلجأ الكاتب إلى وضع تعريفات دقيقة للمصطلحات التي يستعملها في بداية النص أو في آخره.

3-البساطة والوضوح:

تشمل البساطةُ والوضوح في النصّ العلميّ جميعَ المستويات اللغوية: المفرداتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، والبلاغية. فالباحث العلميّ يحاول إبلاغ رسالته إلى المتلقي بطريقة بسيطة واضحة خالية من التعقيدات أو المحسِّنات البديعيّة والبلاغيّة، لئلا تؤدي تلك الصور البلاغيّة إلى الغموض أو اللبس أو تعدد التفسيرات والتأويلات. فهو يتحاشى الحذف، والتلميح، والتقديم والتأخير في التراكيب، كما يتحاشى الصور البلاغيّة والبيانيّة من تشبيه واستعارة وكناية وتورية وغير ذلك مما قد يستخدمه كاتب النصّ الأدبيّ. فأسلوب اللغة الخاصة يتوخى الدقّة العلميّة ويتَّسِم بسهولة المفردات وبساطة التراكيب ووضوح المعاني.

ويعني الوضوح في المفردات تفضيل المألوف من الألفاظ على الحوشي والغريب. أما في التراكيب فيتطلب الوضوح استعمال قوالب لغوية سهلة وتراكيب نحوية بسيطة، كتلك التي تتألف من مسند ومسند إليه وتكملة، أو جملة رئيسة تتضمن جملة تابعة لها أو جملة معطوفة عليها (شاهين: 87).

4-الإيجاز:

تنضوي خصيصة الإيجاز تحت مبدأ الاقتصاد في اللغة. ويعني هذا المبدأ التعبيرَ عن المضامين العلميّة بأقلّ عدد ممكن من الألفاظ من غير الإخلال بالمعنى. ويخضع لخصيصة الإيجاز كلٌّ من المصطلح والتعريف والنصّ.

فمن حيث الإيجاز في المصطلح، يُفضل المصطلح المؤلّف من لفظ واحد على نظيره المؤلف من أكثر من لفظ. ويُعدّ النحت إحدى الوسائل الرامية إلى تحقيق الإيجاز في المصطلحات العلمية وذلك بدمج لفظين أو أكثر في لفظ واحد.

أما التعريف، فيصاغ بأقصر العبارات المباشرة وأقلّ الألفاظ ، وهذا ما يسميه بعضهم بـ " التعريف الأدنى" (أرسلان، 1:33)

أما النصّ العلميّ، فيحقق الإيجاز عن طريق التعبير المباشر عن المفاهيم والمعاني المقصودة، متحاشياً بذلك الحشو والتكرار، في حين أن النصّ الأدبيّ قد يُستخدم التكرار وسيلة للتأثير في وجدان المتلقي.

اعتراضات على معياريّة اللغة العلميّة:

يعترض بعضهم على وجود كتابة معياريّة علميّة تتوفر فيها الخصائص التي ذكرنا، كالموضوعية والدقّة والوضوح والبساطة. ويرون أن هذه الخصائص المزعومة تستند في الحقيقة إلى محاولة الفلاسفة العقلانيين إلى إرساء

المعرفة على العقل، ونظرهم إلى الوجود على أنه مؤلف من مجموعة أشياء، ولكل شيء ماهية، يقوم العقل باكتشافها عن طريق رصد الخصائص الذاتيّة لذلك الشيء، فيتكوّن في ذهن الإنسان مفهوم له. والمفاهيم التي يتعامل معها العقل واحدة لدى جميع الناس مهما اختلفت لغاتهم ومهما تباينت ثقافاتهم، لأنها تمثيلات لموضوعات الوجود، والوجود واحد. فاللفظ على اللسان تعبير عن المفهوم في الذهن، والمفهوم تمثيل للشيء في الوجود، كما ورد في مثلث أوغدن وريتشاردز المشهور (Ogdden& Richards15-21).

وهذه مقاربة انطولوجية تقوم على تصوُّر فلسفيّ مُعيَّن يفترض وحدة الفكر الإنساني بسبب وحدة الوجود، ويفترض أن هذا الوجود يبدو واحداً لجميع الناس مهما اختلفت ذواتهم، لأن الأشياء في الوجود مستقلة عن ذوات الناس. ولكن بعض الباحثين يرون أن لغة الإنسان لا تتعامل مع الأشياء الحسيّة في الوجود فحسب، وإنما تتعامل كذلك مع الموضوعات المعنويّة والقضايا المجرَّدة والعواطف والأحاسيس والانفعالات، كما تتعامل مع العلاقات القائمة بين الذات والموضوع. ولهذا فإنه لا يمكن للغة أن تكون موضوعية خالصة فحسب بل هي ذاتية كذلك، وتكمن دلالتها في استعمالها من قبل المُرسِل والمتلقي في سياق محدد ومقام معلوم. إضافة إلى أن كثيراً من الناس لا يتمكن من رصد الخصائص الجوهريّة والعرضيّة للأشياء وإدراك العلاقات بينها موضوعاً ومحمولاً، ليتمكن من تكوين المفهوم الدقيق، ناهيك به إذا تعرّض للخطأ بسبب ما يطرأ على حواسه من إرهاق وتعب ومرض وما يخالط فكره من تحزّب وتعصب (سرجان: 323-340).

ويرى بعضهم أن مبدأ أحادية الدلالة، الذي يحقق دقة مطابقة المصطلح للمفهوم، ليس مبدأ مطلقاً وإنما هو محدود ونسبيّ، لا مبارات لغوية ومفهومية ونفسية. فالسياقات اللغوية المختلفة والمقامات الاجتماعية المتباينة تنال من وحدة دلالة المصطلح، كما أن سمات المفهوم الذي يعبّر عنه ذلك المصطلح عرضة للزيادة والنقصان، بحيث يكون المصطلح مُعبِّراً عن المفهوم في نقطة معينة من نقاط وجوده، وهذا ما يؤدي إلى تعدد التعريفات للمصطلح الواحد. (أرسلان: 34-38). ومن ناحية أخرى، " فإن اللفظ قد يُعبِّر عن عدة معانٍ ح سب السياق وحسب التطور الذي مرّ به اللفظ," (الصوري: 135).

ويرى بعضهم الآخر أن الكتابة العلميّة ليست مجرد صياغة لفظيّة صرفة للتصورات العلمية، وإنما تخضع لمحدِّدات زمنيّة وتاريخيّة وثقافيّة تفرض على الكاتب اختياراته اللفظيّة والتركيبيّة والأسلوبيّة. فوحدة الأسلوب العلمي وبساطته لا يمكن أن يتحققا في ظلّ واقع معقّد متدرِّج. وهكذا يختلف أسلوب الكاتب العلمي طبقاً للمادة التي يعالجها ونوعية المتلقي الذي يُكتب من أجله النص.(أرسلان: 42-48 و Perrot :2-6)

ويرى بعضهم أن التجرد الكامل من الذاتية ليس أمراً محتوماً في اللغة العلميّة، بل ولا مطلوباً، لأن ذلك سيُلغي الفروق بين لغة وأخرى وبين عالِم وآخر، بحيث لا يمكن للعالِم أن يُخلِّف البصمات الدالة عليه في الأسلوب العلمي (شاهين: 80).

وعلى الرغم من وجاهة هذه الاعتراضات، فإن القارئ لنصين، أحدهما أدبيّ والآخر علميّ، يلحظ وجود فروق بينهما على المستويات اللفظية والتركيبية والدلالية والأسلوبية.

المراجع :

ـــ ابن جني، عثمان. الخصائص، تحقيق محمد علي النجار (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1955)

ـــ أرسلان، زكرياء. اللغة النحوية العربية القديمة: قضايا إبستمولوجية ومصطلحية، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، 2001-2002.

ـــ الأزهري، ومنيزل وأبو عطية. مدخل إلى تدريس المعلوماتية (الرباط: الإيسيسكو، 1994)

ـــ البوشيخي، الشاهد. مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين ـــ قضايا ونماذج (بيروت: دار القلم: 1993)

ـــ البوشيخي، عز الدين. "عن المصطلح والمفهوم وأشكال التعالق بينهما" في: قضية التعريف في الدراسة المطلحية الحديثة (وحدة: منشورات كلية الآداب: سلسلة دراسات ومناظرات 8)

ـــ البياتي، عبد الوهاب. ديوان عبد الوهاب البياتي (بيروت: دار العودة، ط 4: 1990)

ـــ بيشت، هريبرت، ودراسكاو، جنيفر. مقدمة في المصطلحية. ترجمة محمد محمد حلمي هليل (الكويت: جامعة الكويت، 2000)

ـــ الفاسي الفهري، عبد القادر. اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية (الدار البيضاء: دار توبقال، 1985)

ـــ القاسمي، علي. المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2003)

ـــ سرحان، المحجوب.أسس المعالجة الحاسوبية للدلالة اللسانية. أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة المولى إسماعيل، 2002-2001

ـــ شاهين، عبد الصبور. العربية لغة العلوم والتقنية (القاهرة: دار الاعتصام، ط2 : 1986)

ـــ الصوري، عباس. الرصيد المعجمي الحي (الدار البيضاء: النجاح الجديدة، 2002)

ـــ الودغيري، عبد العالي. قضايا المعجم العربي (الرباط: عكاظ، 1987)

- Ogden, C.K. and Richards, I.A. The Meaning of Meaning (New York: Harcourt, Brace&World, Inc., 1923)

- Ferrot , M. et De la Soudière . L'écriture des sciences de l'homme (Paris : Ed. Seuil ,1994)